التذييل في الخطاب القرآني وأسراره البلاغية

د.قدري محمد القنوني
كلية الآداب بالزاوية، جامعة الزاوية

مقدِّمة:

التذييل فن بلاغي عرفته العرب منذ القدم، وجاء في تعابيرهم شعرًا ونثرًا، كل ذلك من أجل إفادة الكلام معنى يحسن السكوت عليه، أو يزيده توضيحًا أو توكيدًا وتحقيقًا.

يأتي التذييل في الخطاب القرآني في ختام آية قرآنية أو آيتين أو أكثر؛ ليمثِّل مظهرًا من مظاهر انسجام النص القرآني، وتماسك بنائه وإحكام أجزائه، ويعد الألوسي وابن عاشور وأبو السعود من كبار المفسِّرين الذين تناولوا التذييل في تفاسيرهم بالدراسة والتحليل في عدد كثير من الآيات القرآنية.

وتكمن أهمية دراسة التذييل في الخطاب القرآني للاستعانة به على فهم معاني كتاب الله تعالى واستجلائها، وإظهار جانب من جوانب الإعجاز القرآني في نظم الآيات الكريمة، وإدراك صور بيانها البلاغي، هذا الكتاب المعجزة من معجزات الدهر، التي لا تقف عند سد، ولا تنتهي عند حد.

أمَّا هدف الدراسة فيتمثَّل في معرفة مضمون التذييل في الخطاب القرآني، وكشف أسرار أساليبه وبلاغتها.

ويمكن إجمال تساؤلات هذا البحث في الآتي:

1- ما مضمون التذييل في الخطاب القرآني؟

2- ما صور التذييل في الخطاب القرآني؟

3- ما مقاصد التذييل في الخطاب القرآني؟

4- ما وجوه التذييل في الخطاب القرآني؟

وتتمثَّل حدود هذه الدراسة من الناحية الموضوعية في بيان مفاهيم التذييل في الخطاب القرآني، ومعرفة صوره، وإظهار أسراره البلاغية في القرآن الكريم.

يأتي كل ذلك بتطبيق المنهج الوصفي التحليلي، وأداته في تحليل المحتوى، استعانة بما كتبه علماء اللغة والبلاغة والتفسير في هذا الشأن.

وينحصر هيكل هذه الدراسة في أربعة عناصر رئيسة هي:

1- تعريف التذييل.

2- مواضع التذييل.

3- أساليب وصور التذييل.

وصولًا إلى أهم النتائج. وفيما يأتي بيان وتفصيل ذلك:

أولاً: تعريف التذييل.

1- التذييل في اللغة:

التَّذْيِيلُ: مصدر على وزن التَّفْعِيل، وهو من الجذر اللغوي ذَيَّلَ يُذيّل تذييلاً، وهو جَعلُ الشيء ذيلاً للآخر، ورد في أساس البلاغة "ذَيَّل كلامه تذييلاً، وتذيَّل في كلامه وتسرَّح: تبسَّط فيه غير محتشم. وفلان طويل الذيل:غنيّ. وذالت حاله وتذايلت: تواضعت. وذالت الحمامة: سحبت ذنبها. وأذالت المرأة قناعها: أرسلته. وأذال ماله: ابتذله بالإنفاق، ولم يصنه. يقال: أذل مالك، يصن عرضك"[1].

وورد في لسان العرب بأنَّه "آخر كل شيء، وذَيْل الثوب والإزارِ ما جُرَّ منه إذا أُسْبِل، والذَّيْل ذَيْلُ الإزار من الرِّداء، وهو ما أُسْبِل منه فأَصاب الأَرض، وذَيْلُ المرأَة لكل ثوب تَلْبَسه إِذا جرَّته على الأَرض من خلفها"[2].

يتضح من مجمل التعريفات اللغوية السابقة أنَّ لفظ التَّذْيِيل يحمل دلالات لغوية عدَّة، أبرزها الطول، الامتداد، البسط، النشر، الوفرة والسعة، التجمُّل، التبختر، ترك الأثر، أواخر الأشياء ونهاياتها. كل ذلك تتكشَّف دلالته خلال الاستعمال اللغوي لهذا اللفظ، الذي يسهم في اتساع دلالة الجملة وفق سياقات النص وارتباطه بها.

2- التذييل في الاصطلاح.

من أقدم تعريفات التذييل ما ذكره أبو هلال العسكري بقوله: "أمَّا التذييل فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهَرَ لمن لم يفهمه، و يتوكَّد عند من فهِمه"[3]،

وبقول ابن سنان: "أمَّا التذييل فهو العبارة عن المعنى بألفاظ تزيد عليه، وإنَّما لم نقل في التذييل –إيضاح المعنى– كما قلنا في حد المساواة والإيجاز لما نذهب إليه من حمد الإيجاز والمساواة إذا كان المعنى فيهما واضحاً"[4].

وقد يفهم من هذا القول تقسيم دلالة الألفاظ على المعاني إرادة الإيجاز والمساواة والإطناب.

وعرَّفه ابنُ أبي الإصبع بعبارة موجزة يقول فيها: "التذييل هو أنْ يذيِّلَ المتكلمُ كلامه بعد تمام معناه بجملة تحقِّقُ ما قبلها"[5].

كما جاء في حديث ابن البناء المراكشي في باب الإكثار قوله: "أمَّا الإكثار فمنه ما يقال له الاستكثار، وهو كلام مؤلف من جزأين أحدهما يجري مجرى المقدمة، والثاني يجري مجرى التكملة... ومنه ما تكون الكلمة تجري مجرى الحجة على ما يتقدمها في الجزء الأول، ويسمَّى التذييل"[6].

وقول بدر الدين بن مالك: "أنْ تأتي بعد تمام الكلام بمشتمل على معناه من جملة مستقلة بنفسها لإفادة التوكيد والتحقيق لدلالة منطوق الكلام أو دلالة مفهومه"[7].

وعرَّفه الزَّركشي بقوله: "أنْ يؤتى بعد تمامِ الكلام بكلام مستقلٍّ في معنى الأول؛ تحقيقًا لدلالة منطوق الأول أو مفهومِه؛ ليكون معه كالدليل؛ ليظهَر المعنى عند مَن لا يفهم؛ ويكمل عند مَن فهِمه"[8]،

وابن حجة الحموي قائلاً: "أنْ يذيِّل الناظم أو الناثر كلاماً بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام، وتزيده توكيداً وتجري مجرى المثل بزيادة التحقيق"[9].

والسيوطي بقوله: "أنْ يؤتى بجملةٍ عقِبَ جملة، والثانية تشتمل على المعنى الأول؛ لتأكيد منطوقِه أو مفهومه؛ ليظهَر المعنى لمن لَمْ يفهمْه، ويتقرَّر عند من فهِمه"[10].

من مجمل هذه التعريفات يستخلص أنَّ (التذييل) يقوم على تعقُّب الجملة الأولى، بجملة ثانية ترتبط بما يسبقها من الكلام، مشتملة على معنى الأولى، وأنَّ هذه الجملة تتنزَّل منزلة الحجة على مضمونها، كما تتضمَّن تحقيق المعنى أو تأكيده، مكوِّنة في سياقها رابطاً لفظياً ومعنوياً بين أجزاء النص القرآني. فالمقصود من التذييل المعرَّف في باب الإطناب بأنَّه "تعقيب الجملة بجملة مشتملة على معناها تتنزل منزلة الحجة على مضمون الجملة، وبذلك يحصل تأكيد معنى الجملة الأولى وزيادة، فالتذييل ضرب من ضروب الإطناب من حيث يشتمل على تقرير معنى الجملة الأولى ويزيد عليه بفائدة جديدة، لها تعلق بفائدة الجملة الأولى"[11].

ثانياً- مواضع التذييل:

يأتي التذييل في الخطاب القرآني في مواضع عدَّة، فيأتي تارة في ختام الآية القرآنية، وتارة بوسطها، وتارة آية برأسه، وفيما يلي يستعرض البحث تلك المواضع والشواهد القرآنية الدالة على ذلك، وفق أكثر المواضع التي يرد فيها التذييل.

1- التذييل في ختام الآية القرآنية:

يعد هذا النوع من التذييل في الخطاب القرآني الأكثر والغالب في القرآن الكريم، حتى أنَّه ليس من السهل حصر الآيات الكريمة التي تشتمل على ذلك في كتابه العزيز، ومن أمثلة هذا التذييل ما ورد في الآية الكريمة﴿**فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[12]، تبين الآية الكريمة أنَّ الكُفَّارُ عند إيمانهم بِمِثْلِ مَا آمَن بِهِ المُؤْمِنُونَ، أي بِجَمِيعِ كُتُبِ اللهِ، وَبِجَمِيعِ رُسُلِهِ، وَلَم يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، فَقَدِ اهْتَدَوْا لِلْحَقِّ، وَإِنْ تَوَلّوْا عَنِه بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيهِمْ، وَاتَّبَعُوا البَاطِلَ، فَإِنَّهُمْ مُشَاقُّونَ مُخَالِفُونَ، وأَنَّ الله يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ، وَيَعْلَمُ ما يسري في قلوبهم ويُدَبِّرُونَ.

بأنْ جاء في ختام الآية قوله تعالى ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ وهو "تذييل لما سبق الوعد به وتأكيد له، أي هو: السميع لما تدعو به، العليم بما في نيتك من إظهار دينه، فيستجيب لك، ويوصلك، ويوصلك إلى مرادك، أو وعيد للكفرة بمعنى يسمع ما يبدون، ويعلم ما يخفون ممَّا لا خير فيه، وهو معاقبهم عليه، وفيه تأكيد الوعد السابق فإنَّ وعيد الكفرة وعد للمؤمنين[13].

والتذييل في الآية الكريمة ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾[14]. جعل اللهَ تَعَالى بِقُدْرَتِهِ العَظِيمَةِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ مُسْتَقِرَّةً ، تَسيرُ فِي أَفْلاَكِها بِانْتِظَامٍ وَهُدوءٍ، دون أي اضْطِرَابٍ أوَ خُرُوجٍ عَنْ مَسَارَاتِها، أو انفلاتٍ في الفَضَاءِ عَلَى غَيرِ هُدَى. وإنْ أَشْرَفَتْ عَلَى الزَّوَالِ، ليس باستطاعة غَيْر اللهِ أَنْ يُمْسِكَها، فالله تعالى وحده القادر على ذلك.

وفي ختام الآية يأتي قوله تعالى:﴿**إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾: وهو تذييل جاء "بوصف الله تعالى بالحلم والمغفرة لما يشمله صفة الحليم من حلمه على المؤمنين أنْ لا يزعجهم فجائع عظيمة، وعلى المشركين بتأخير مؤاخذتهم فإنَّ التأخير من أثر الحلم، وما تقتضيه صفة الغفور من أنَّ في الإمهال إعذاراً للظالمين لعلهم يرجعون"[15]، فالله تعالى حليم غفور يرى عباده يعصونه، ويكفرون بِه، فيحلم عليهم، ويؤَخِّر عقابهم لعلَّهم يتوبونَ إِليه فيغفر لهم، ويتَجاوز عن سيئَاتهم".

والتذييل في الآية الكريمة﴿**لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[16]. يجازي الله تعالى عباده الحريصين على أداء أحسن الطاعات فرضها ونفلها، فيجازيهم ثواب أعمالهم الجزاء الحسن، بل ويزيدهم من فضله بمضاعفة حسناتهم.

وبآخر الآية الكريمة يأتي التذييل بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ أي يرزق

الله مَن يشاء بغير حساب، فيعطيه مِنَ الأجر ما لا يبلغه عمله بلا عدٍّ ولا كيل، وذلك بمقابلة حسنة واحدة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

والتذييل في الآية الكريمة بقوله له تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾[17]،

تشتمل الآية الكريمة على الأمر بالتسبيح، أي تنزيه الله تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه مع حمده تعالى زيادة في عبادته، والثناء عليه سبحانه لزيادة إنعامه على عباده، وجاء الأمر بالتسبيح مقروناً بحمد الله تعالى، وهو ما تفيده باء المصاحبة التي بمعنى مع، والمقتضية أنَّ التسبيح لاحقٌ للحمد، فكان حمد الله على حصول النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام شيئاً مفروغاً منه.

وفي نهاية الآية يأتي قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ وهو أول تذييل يجده القارئ في قصار السور. تذييل وتعليل لما يقتضي التعليل فيه من الأمر باستغفار الله تعالى وحمده على جزيل النعم.

2- التذييل وسط الآية القرآنية:

من الشواهد القرآنية الدالة على مجيء التذييل في الخطاب القرآني وسط الآية القرآنية، التذييل في الآية الكريمة﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[18] جاء في الآية الكريمة أنَّ للحج أشهر معلومات يقع فيها، وهي عند جمهور العلماء شوال، وذو القعدة وعشر ذي الحجة، وعلى الحاج تعظيم هذه العبادة وتنزيهها عن كل ما يفسدها أو ينقص ثوابها؛ وذلك بالابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال أيام الحج، والتزوُّد بما يكف الوجوه عن السُّؤال، والأنفس عن الظُّلم.

وبوسط الآية يأتي قوله تعالى:﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ وهو تذييل للجملة السابقة له، مع اختتام الآية بقوله تعالى:﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾. بدعوة

أصحاب العقول إلى تقوى الله تعالى والامتثال لأوامره، وتجنُّب نواهيه، كل ذلك اعتقاداً وقولاً وعملاً.

وفي بيان هذا التذييل يقول ابن عاشور: "فقوله: "فإنَّ خير الزاد التقوى"... أي التقوى أفضل من التزوُّد للسفر، فكونوا عليها أحرص. ويجوز أنْ يستعمل التزوَّد مع ذلك في معناه الحقيقي على وجه استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، فيكون أمراً بإعداد الزاد لسفر الحج تعريضاً بقوم من أهل اليمن كانوا يجيئون إلى الحج دون أي زاد، ويقولون نحن متوكلون على الله فيكونون كلاً على الناس بالإلحاف"[19].

ومنه التذييل في الآية القرآنية ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾[20].

وفيها يحث القرآن الكريم المسلمين على الجهاد وقتال المشركين، وألا يتحرَّجوا من قتالهم في الحرم، فهم الذين بدأوا بإذاية المسلمين، فقاتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، وفي وسط الآية يأتي قوله تعالى:﴿**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ وهو تذييل معطوف على جملة ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾ التي أفادت الأمر بتتبع المقاتلين بالتقتيل حيثما حَلُّوا، سواء كانوا مشتبكين بقتال المسلمين، أم كانوا في حالة تنقُّل أو تطلُّع أو نحو ذلك، فالفتنة التي ارتكبها المشركون بالله "أشد وأعظم من قتلكم إياهم في الحرم والإحرام وإنَّما سمي الشرك بالله فتنة لأنَّه فساد في الأرض يؤدي إلى الظلم. وإنَّما جعل أعظم من القتل لأنَّ الشرك بالله ذنب يستحق صاحبه الخلود في النار، وليس القتل كذلك، والكفر يخرج صاحبه من الأمة، وليس القتل كذلك، فثبت أنَّ الفتنة أشد من القتل"[21].

وفي الآية الكريمة﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[22].

يُقَرِّعُ اللهُ تعالى بَنِي إِسْرَائِيلَ الذِينَ شَهِدُوا قُدْرَةَ اللهِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَةٍ، متمثلةً في العديد من المعجزات، التي منها المسخ، ورفع الجبل فوقهم، وانبجاس الماء من الحجرِ، وإحياء الميت بضرب عضوٍ، غير أنَّهم بعد كل هذا عَادُوا إِلى الكُفْرِ وَالجُحُودِ وَالفَسَادِ، فتركوا الإيمان بمحمَّدٍ –صلَّى الله عليه وسلَّم– بعد ما عرفوا صدقه، وقدرةَ الله تعالى على عقابهم بتكذيبهم إيَّاه، فصلبت قلوبهم واشتدَّت، حتى صارت كالحجارة في القسوة، بل أشدُّ قسوةً منها، ثمَّ عذر الله تعالى تلك الحجارة وفضَّلها على قلوبهم، بتذييل يقول فيه: ﴿**وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾. كل ذلك بياناً لفضل تلك الحجارة عند الله تعالى.

وفي الآية الكريمة ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾[23].

خلق الله تعالى السموات والأرض بكمال قدرته، وشمول علمه، وإتقان صنعه، وكل ذلك حق ودليل على وحدانيته. وبعد هذا العرض يأتي قوله تعالى:﴿ **وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ**﴾، وهو تذييل وسط الآية الكريمة؛ تأكيداً لقدرة الله تعالى وإقراراً بأنَّ ما يجري وفق مقتضيات حكمته إنَّه هو الحكيم الخبير.

وفي الآية الكريمة:﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[24]، شرع الله تعالى للمسلمين التحلَّة، أي تحليل الأيمان التي عقدوها، ويراد بها الكفارة، وهي مصدر حلّل، من الحل الذي هو ضد العقد. فاليمين إذا كانت في أمر لا يحبه الله – تعالى– فالعدول عنها أولى وأفضل. ووسط هذه الآية جاءت جملة:﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ وهي تذييل لما سبق من الآية، فالله تعالى هو سيد الخلق أجمعين ومتولّي تدبير أُمورِهم.

يلحظ في مجمل الأمثلة المتقدمة، اشتمالها على أسلوب التذييل، وأنَّ بين مضمون الآية ومضمون التذييل انسجاماً، وتآلفاً، وتناسباً؛ فالبيان القرآني بأسلوبه

ومضمونه يتجه نحو رعاية مطالب المعنى، وفي الوقت نفسه يحرص على رعاية المبنى.

3- التذييل بآية قرآنية برأسها:

من التذييل الذي يأتي في الخطاب القرآني آية برأسه، التذيل في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾[25]، جاء في هذا الخطاب القرآني بيان الرسول الكريم –صلَّى الله عليه وسلَّم– للمشركين من قومه أنَّه لا يطلب منهم نظير إبلاغهم رسالة ربِّي، ودعوتهم إلى وحدانية الله تعالى أجرًا ولا جزاءً، وَأنَّه في تلك الدعوة صادق النبوة، لا يدَّعيها، ولاَ يتكلُّفها، فهو لا يَدَّعِي مَعْرِفَةَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، وَلا يتَكلُّف ذلك تخرُّصًا وافتراءً.

وعقب هذه الآية الكريمة يأتي التذييل بأية مستقلة، مفادها أنَّ ما نزل به الوحي على سيدنا محمد –صلَّى الله عليه وسلَّم– ذكر وموعظة للثقلين أجمعين، نزل به الروح الأمين على سيدنا محمد –صلَّى الله عليه وسلَّم– وأُمر بتبليغه للعالمين.

وفي قوله تعالى:﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾[26] يتضمَّن هذا الخطاب القرآني تسلية رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم– عمَّا حصل له من الاغتمام بسبب تكذيب المشركين وكفرهم بالقرآن الكريم، وعدم إيمانهم بأنَّه كتاباً مرسلاً من عند الله تعالى، ويخبره تعالى بأنَّ هذا الأمر ليس بالجديد، بل هو عادة قديمة، حصلت مع موسى، وهو يدعو قومه إلى التوراة، فمنهم من آمن بها، ومنهم من كفر.

وفي الآية اللاحقة يأتي التذييل الذي مفاده أنَّ من يفعل من الناس خيراً سيجده يوم القيامة، ومن يفعل شراً سيحاسب عليه يوم الحساب، كل ذلك وفق العدالة الإلهية، التي لا تظلم أحداً.

وفي قوله تعالى: ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾[27]

ثم يقول عزَّ وجلَّ في الآية التالية: ﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾ وهو تذييل للآية السابقة مفاده أنَّ ما وقع هو شأن سائر الأمم السابقة مع الرسل، فكلما جاءهم رسول من عند الله يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهَّار، أعرضوا عنه، وتمَّسكوا بعبادة ما كان يعبد آباؤهم من أوثان وأصنام وغيرها.

وفي الآيات الكريمة: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[28].

نزلت الآيات الست الكريمات في هذه السورة رداً على الاقتراح الذي تقدَّم به بعض المشركين، غايته أنْ يعبد الرسول –صلَّى الله عليه وسلَّم– معهم آلهتهم سنة، ويعبدون معه إلهه سنة، مصالحة بينهم وبينه، معالجة للخصومات في نظرهم، غير أنَّ هذه الآيات جاءت برفض قبول هذا الاقتراح، وعدم الاستجابة له، وأنْ يقول –صلَّى الله عليه وسلَّم– لأصحاب هذا الاقتراح الباطل من المشركين: يا أيُّها الكافرون المشركون في عبادة الله تعالى أصناماً وأوثاناً، لن نشارككم في عبادة الأصنام والأوثان أبداً، سواء الآن أو مستقبلاً.

وفي ختام السورة جاءت الآية الكريمة ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ تذييلاً وفذلكةً لما في الآيات التي سبقتها من تأكيدات، وقد أُرسل هذا الكلام إرسالَ المثل وهو أجمع وأوجز **دليل على تمام التوحيد والبراءة من الشرك**. كما جاء غاية في التبرؤ وانتفاء –عليه الصلاة والسلام– من دين المشركين ومخاطبتهم عندما تحقَّق النفي بقوله: تعالى ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ على سبيل المهادنة. أي لكم دينكم الذي تعتقدونه من الكفر، ولي ديني الذي اعتقده من الإسلام. فلكم جزاء عملكم، ولي جزاء عملي.

من الأمثلة المتقدمة بأضربها الثلاثة من (التذييل) لما قبله، بعد تمام المعنى، إمَّا على سبيل التأكيد، وإمَّا على سبيل التقعيد.+

ثالثًا- أساليب التذييل في الخطاب القرآني:

يأتي التذييل في الخطاب القرآني وفق أساليب عدَّة، أولهما: التذييل الذي يجري مجرى المثل، وله صنفان، أحدهما ما ختم بالأسماء الحسنى، والآخر ما ختم بغيرها، وفي كلٍ يأتي هذان الصنفان لتأكيد المفهوم، أو لتأكيد المنطوق.

ثانيهما: التذييل الذي لا يجري مجرى المثل، وله صنفان، أحدهما

ما يأتي مؤكداً للمفهوم، والآخر: ما يأتي مؤكدًا للمنطوق.

وفيما يأتي بيان مفصَّل لما سبق إجماله من أساليب التذييل، والشواهد القرآنية الدالة عليها.

أولاً- التذييل الذي يجري مجرى المثل:

يقوم هذا الأسلوب من التذييل على استخدام الأمثال التي تعد وسيلة من وسائل الخطاب القرآني، وذلك بتضمينها في التذييل؛ سعيًا إلى جودة إيصال المعنى وتبليغه إلى القارئ.

ويأتي هذا الأسلوب من التذييل مستقلاً في إفادة المعنى المراد، ولا يتوقُّف عمَّا قبله. وذلك لاستقلال التذييل بمعناه، واستغنائه عمَّا قبله.

ويرى ابن عاشور أنَّ التذييل الذي يجري مجرى المثل أقوى وأبدَعَ وجوه التذييل؛ لما فيه من عموم الحكم. وما يحمله من مظاهر انسجام النص القرآني، وتماسك بنائه، وتناسب أجزائه وإحكام بُنيانه.

ومن أصناف التذييل الذي يجري مجرى المثل السائر ما يأتي:

1- التذييل المختوم بأحد الأسماء الحسنى المؤكد للمنطوق:

يأتي هذا الصنف من التذييل تقريراً لمنطوق الخطاب القرآني وتحقيقه، وذلك لما يشتمل عليه من تعليل للكلام السابق للتذييل وإيضاح له، فيساق من أجل تأكيد

منطوق الكلام، بمعنى أنْ تكون الجملة الثانية تأكيداً لمنطوق الجملة الأولى، كما يشترط أنْ يكون هناك اشتراك بيم الجملتين في نفس اللفظ.

ومن الشواهد القرآنية لهذا التذييل، التذييل في الآية القرآنية ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[29].

تثبت الآية الكريمة أنَّ الله تعالى أجلُّ من أنَّ يحيط أحد بشيء من علمه، وأنْ يعلم الغيب أحدٌ سواه، والإقرار بما لا علم لدى غيره إلا بما علَّمه الله تعالى وألهمه إياه، كما توضِّح اعتراف الملائكة بالعجز والقصور عن معرفة مسميات الأسماء، وتشريفاً لآدم لعلمه بها، وإشعاراً بأنَّ سؤالهم كان استفساراً، ولم يكن اعتراضاً، واعترافًا لما ظهر لهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه، مع تفويض العلم كله إلى الله تعالى.

وقد جاء التذييل في ختام الآية القرآنية ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ إقرارًا وتأكيدًا بأنَّ الله تعالى هو العليم بخلقه، وبما يكون في السموات والأرض، والحكيم في أمره إذا حكم بأنْ يجعل في الأرض خليفة، وعلى وجه الحكمة تدرك الأشياء بحقائقها. وقد تقدَّم في هذا التذييل الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة لمناسبة ما تقدَّم من طلب الإنباء، وتعذُّرهم بألَّا علم لديهم، ولأنَّ الحكمة لا تبعد عن العلم، وليكون آخر مقالتهم مخالفاً لما يتوهَّم من أولها.

وفي الآية الكريمة:﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[30]. إذ هذه تدع الآية إلى الإفاضة من مزدلفة إلى مِنًى، وفي هذا يقول القرطبي: "قيل: الخطاب للحُمْس؛ فإنَّهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحَرَم، وكانوا يقولون: نحن قِطين الله، فينبغي لنا أنْ نعظّم الحرم، ولا نعظّم شيئاً من الحِل، وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أنَّ عرفة موقف إبراهيم –عليه السلام– لا يخرجون من الحرم، ويقفون بجَمْع ويُفيضون منه، ويقف الناس بعرفة؛ فقيل لهم: أفيضوا مع الجملة"[31].

ويقول ابن عاشور: "إشارة إلى عرفات فيكون متضمّناً الأمر بالوقوف بعرفة لا بغيرها إبطالاً لعمل قريش الذين كانوا يقفون يوم الحج الأكبر على (قُزَح) المسمَّى بجمع وبالمشعر الحرام فهو من المزدلفة، وكان سائر العرب وغيرهم يقف بعرفات فيكون المراد بالناس في جمهورهم من عدا قريشاً".

ورد التذييل في الآية الكريمة بجملة **(وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ)**، وهي تفيد طلب الاستغفار بعد العبادة، دليلاً على تقصير العبد في العبادة مهما اجتهد، ثم جاء التذييل بجملة **(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** وما تشتمل عليه من الأسماء الحسنى، وهو تذييل مؤكد لمنطوق الجملة السابقة ومعللًا لها.

وفي الآية الكريمة ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾[32].

يجوز في جملة **(تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)** أنْ تكون عطفاً على الجملة السابقة أو حالاً لها، أي ما تشاءون شيئاً في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال، مع ارتباط حصول المشيئة بمشيئة الله، بأنَّ الله عليم حكيم، أي عليم بوسائل إيجاد مشيئتكم، حكيم بدقائق ذلك، وقد جاء التذييل في هذه الآية في جملة **(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)** وهو يفيد تنبيه الناس إلى المعنى الخفي ليرقبوه في أنفسهم، فيجدوا آثاره الدالة عليه قائمة متوافرة في نفوسهم، وهو تذييل أو تعليل لأنّ تعالى واجب له العلم والحكمة، وهو أعلم بمن شاء أنْ يدخله في رحمته، ومن شاء أنْ يبعده عنها.

2- التذييل المختوم بأحد الأسماء الحسنى، المؤكد للمفهوم:

يراد بهذا الصنف من التذييل ما يأتي مؤكداً لمفهوم الخطاب القرآني في الآية المشتملة على التذييل، مع اشتمال هذا التذييل على اسم من الأسماء الحسنى، وتكمن مهمة هذا النوع من التذييل في تأكيد نعاني ومضامين كثيرة في الآية الكريمة، وهو تذييل يتطلَّب إعمال الفكر مقارنة بالتذييل المؤكد للمنطوق. ومن الشواهد القرآنية الدالة على ذلك، ما ورد في الآية الكريمة ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[33].

إذ تبيّن الآية الكريمة جملة من الدلائل على قدرة الله تعالى، ألا وهي القدرة على خلق الأرض وما فيها جميعاً، وخلق السموات السبع، كل ذلك وما فيه من مصلحة للعباد، سواء في دينهم أو دنياهم، وقد جاء التذييل في ختام الآية الكريمة بجملة(**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ بتقديم (بِكُلِّ شَيْءٍ)على متعلقة (عَلِيمٌ)، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، وذلك لاختصاصه سبحانه وتعالى بالعلم بما خلق، وأنَّ خلقه للمخلوقات دليل على قدرته وحكمته وعلمه.

وفي هذا التذييل تقول فاطمة الزهراء معزوز: "هذا الختام بالتذييل ناسب السياق الوارد فيه، إذ قال سبحانه ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ ولم يقل وهو على كل شيء قدير، أن الخلق الذي يتحدث عنه الله تعالى هو دليل على علمه به، وهو سبحانه كثيراً ما يقرن بين خلقه وإثبات علمه... لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته"[34].

وفي هذا يظهر بكل وضوح الإقران بين قدرة الله تعالى على الخلق، وإثبات علمه بما خلق.

والتذييل في الآية الكريمة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[35].

يأتي النهي في الآية الكريمة لجميع المؤمنين بعدم اتباع تزيين الشيطان ووساوسه، وتركها والابتعاد عنها، وأنَّ من يخضع ويفعل ذلك فهو أمر بالفحشاء والمنكر، ةأنَّ الله تعالى يزكي من عبادة للتوحيد ويطهر من يشاء والله سميع لمقالة عباده، عليم بهم.

وقد جاء التذييل في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي سميع لمن يشيع الفاحشة، عليم بما في نفسه من محبّة إشاعتها، وسميع لمن ينكر على ذلك، عليم لما في نفسه من كراهة ذلك فيجازي كلاً على عمله.

وقد جاء إظهار اسم الجلالة في هذا الخطاب القرآني ليكون التذييل مستقلاً بنفسه لأنَّه مَّما يجري مجرى المثل.

وفي الآية الكريمة:﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا**﴾[36]. إذْ جاء في قوله تعالى:﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ تذييل بأحد أسماء الله الحسنى (توَّابًا)، وهو أول تذييل للقارئ مبتدئا من قصار السور.

ومن ضوابط هذا الأسلوب من التذييل، هو ما يرد منه لبيان معنى الجملة الأولى، وتأكيد مفهومها بواسطة الجملة الثانية، دون اشتراك الجملتين في اللفظ، مع إيراد أحد أسماء الله الحسنى.

3- التذييل بغير الأسماء الحسنى المؤكد للمفهوم:

يساق هذا الصنف من التذييل لتأكيد مفهوم الكلام، بأنْ تكون الجملة الثانية تأكيداً لمفهوم الجملة الأولى، أي تأكيداً لمعناها دوم اشتراكهما في اللفظ. ودون ذكر أي اسم من الأسماء الحسني.

من الشواهد الدالة على ذلك، التذييل في الآية الكريمة: ﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾[37]،

تبين الآية الكريمة نهي الله تعالى المؤْمنين عن كثرة سؤال النَّبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- عن الأَشياء قبل وقوعها، كما سأَل بنو إسرائيل موسى تكذيباً وتعنتاً وكفراً، حالهم في ذلك أشبه بحال من خرج من الإيمَانِ إلى الكفر والضلالة، فضلَّ الطَّرِيق المستقيم.

وبشأن التذييل الوارد في هذه الآية الكريمة ﴿**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ يقول الألوسي: "جملة مستقلة مشتملة على حكم كلي أخرجت مخرج المثل جيء بها لتأكيد النهي عن الاقتراح المفهوم من قوله: {أَمْ تُرِيدُونَ} الخ معطوفة عليه، فهي تذييل له باعتبار أنَّ المقترحين الشاكين من جملة الضالين

الطريق المستقين المتبدلين و(سواء) بمعنى وسط أو مستوى، والإضافة من باب إضافة الوصف إلى الموصوف لقصد المبالغة في بيان قوة الاتصاف كأنَّه نفس السواء على منهاج حصول الصورة في الصورة الحاصلة والفاء رابطة وما بعدها لا يصح أنْ يكون جزاء الشرط لأنَّ ضلال الطريق المستقيم متقدم على الاستبدال والارتداد لا يترتب عليه... بأنْ يقال: ومن يتبدل الكفر بالإيمان فالسبب فيه أنَّه تركه، ويؤل المعنى إلى أنَّ ضلال الطريق المستقيم وهو الكفر الصريح في الآيات سبب للتبديل والارتداد" الألوسي

ومن الشواهد الدالة على هذا التذييل كذلك ما ورد في الآية الكريمة(**وَلُوطًا آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ**﴾[38]،

بأنْ جاءت جملة ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ**﴾ تذييل مؤكد لمعنى الآية﴿الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ ومقرِّر له في ذات الوقت، وهو تأكيد يختلف عن الضرب الأول، المؤكد للمنطوق، وذلك لعدم وجود كلمات مشتركة من حيث المادة مع الجملة التي سبقتها.

4- التذييل بغير الأسماء الحسنى المؤكد للمنطوق:

من أصناف التذييل الذي يجري مجرى المثل والمؤكد للمنطوق دون أنْ يشتمل على أي اسم من الأسماء الحسنى، والذي تحفل به الكثير من الآيات القرآنية.

من الشواهد القرآنية لهذا الضرب التذييل الوارد في الآية الكريمة﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[39]. بمجيء الحق استعمالاً مجازياً؛ وذلك لإدراك الناس الحق وعملهم به، كما استعمل زهوق الباطل في تركه وكأنَّه كان مقيماً بين الناس ففارقهم، وذلك على سبيل الاستعمال المجازي. أي استقرار الحق الذي يدعو إليه سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلَّم– وانقضاء الباطل الذي ينهى عنه.

جاءت جملة ﴿**إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾ تذييلاً لجملة ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ**﴾ فالحق ضد الباطل، وإذا انتفى الباطل ثبت الحق، وبهذا كانت الجملة تذييلاً لجميع ما تضمنته الجملة التي قبلها، وهي تجري مجرى المثل السائر بين الناس.

ومنه كذلك التذيل في الآية القرآنية ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾(40).

يأمر الله تعالى في هذه الآية عباده المؤمنين بقتل المشركين المقاتلين حيث وجدوهم، كما يدعوهم إلى إخراجهم من حيث أخرجوهم، بينما ينهاهم عن قتالهم عند المسجد الحرام حتَّى يقاتلوهم فيه، فإنْ قاتلوهم فيه فليقاتلوهم، و ذلك جزاء الكافرين.

وقد جاء التذييل في جملة﴿**والْفتنة أَشد من الْقَتلِ**﴾، وهو تذييل وارد في صورة المثل السائر؛ تأكيداً للكلام الذي سبقه، مع مجيء لفظ (الفتنة) معرَّفاً بالألف واللام دلالة على العموم والشمول والاستغراق، وعدم الاقتصار على الإخراج من الديار وحسب، وهو ما يتناسب و طبيعة التذييل الوارد في صورة المثل السائر. مع الأخذ في الاعتبار ما يفيده لفظ (الفتنة) من دلالات ومفاهيم، فهي تدل على المال، الأولاد، الكفر، الضلال والصرف عن الشيء، المحنة، الاختبار، اختلاف الناس.

والتذييل في الآية الكريمة: ﴿**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾(41).

يأمر الله تعالى عباده بالنفقة في سبيله؛ بإخراج الأموال بالطرق المشروعة، مثل التصدُّق إلى الأقارب والمساكين، أو الإنفاق على من تجب مئونتهم. أو الإنفاق في الجهاد في سبيل الله.

وقد جاء التذييل في الآية الكريمة بجملة: ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ وهو تذييل يتناسب وصدر الآية حيث أمر الله تعالى عباده بالإنفاق في سبيله، ثم إرشادهم إلى عدم إلقاء أنفسهم في الهلاك؛ فالبخل والنكوص عن الجهاد وأسبابه سبب من

أسباب الذل في الدنيا والهلاك في الدنيا والآخرة. وهو تذييل في مجمله جاء لبيان مفهوم الآية.

وفي الآية الكريمة:﴿**إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾[42].

يوضِّح هذا الجزء من الآية الكريمة أنَّ رسول الله–صلى الله عليه وسلّم– إنَّما ينذر من كان يؤمن بالله تعالى فيخشاه وإنْ لم يراه، ويستجيب لتلك الإنذارات ويخضع لها و ينطاع؛ خوفاً من عذاب الله تعالى يوم القيامة، وأنَّ من أقام الصلاة وحافظ عليها وعمل الصالحات وتصدَّق وأحسن، فقد طهَّر نفسه من كل الأدناس والأوزار والمعاصي فإنَّما يتزكَّى لنفسه.

وجاءت جملة (ومن تزكَّى فإنَّما يتزكَّى لنفسه)، تذييلاً جار مجرى المثل. وهو تذييل ورد عقب المذيل، ليؤذن بأنَّ ما تضمَّنه المذيَّل داخل في التذييل، فالمعنى: أنَّ الذين خَشُوا ربَّهم بالغيب وأقاموا الصلاة فهم ممّن يتزكَّى وينتفع بتزكيته، فالذي ينتفع بالنذارة، هم الذين يخشون ربهم بالغيب، وأولئك قد تزكَّوا بها، ومن تزكَّى فإنَّما يتزكَّى لنفسه.

كما قد يفيد هذا التذييل أنَّ الذين لم يعبئوا بنذارته قد تركوا تزكية أنفسهم بها، فكان تركهم ضراً على أنفسهم.

ثانياً– التذييل الذي لا يجري مجرى المثل:

من التذييل القرآني ما لا يجري مجرى المثل، سواء كان مؤكداً للمفهوم أو مؤكدًا للمنطوق، وفيما يلي يسوق البحث بعض الشواهد المؤيدة لهذا التذييل وأصنافه.

1– التذييل الذي لا يجري مجرى المثل المؤكد للمفهوم:

يأتي هذا الصنف من التذييل في الخطاب القرآني من أجل تأكيد مفهوم الكلام، أي ما يدل عليه اللفظ من المعاني التي ليست في محل اللفظ، ولكن يمكن استنباطها من خلال دلالات اللفظ الوارد في الآية الكريمة محل التذييل. بمعنى أنْ تكون الجملة الثانية تأكيدا لمعنى الجملة الأولى ومفهومها دون اشتراكهما في اللفظ، وهو

كثير في القرآن، ومثاله ما ورد في الآية الكريمة ﴿**وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ**﴾ فقوله: (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)، تذييل مؤكدا لمعني قوله: (كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ)، ومقرّر له في ذات الوقت، وهو تأكيد يختلف عن الضرب الأول، المؤكد للمنطوق، لأنّنا لا نجد في هذه الجملة كلمات مشتركة من حيث مادتها مع الجملة التي سبقتها.

من الشواهد القرآنية لهذا الصنف من التذييل، ما ورد في الآية الكريمة ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[43] **إذ تشير الآية الكريمة إلى المؤمنين الداعين الله تعالى أن يأتيهم بالحسنتين في الدنيا والآخرة، كما سبق في الآية، وأنَّ لكل فريق منهما نصيب ممَّا كسب من الخير والدعاء بالثواب والجزاء على الدعاء بالدنيا، والله سريع الحساب وهو يعلم العباد بما لهم وعليهم، وبمقادير ما لهم من الثواب، وعليهم من العقاب**

وتفيد جملة (والله سريع الحساب) التذييل الذي قصد به تحقيق الوعد بحصول الإجابة، وزيادة التبشير لأهل ذلك الموقف؛ لأنَّ إجابة الدعاء فيه سريعة الحصول، وقد أطلق لفظَ الحساب على مراعاة العمل والجزاء عليه.

وفي الآية الكريمة:﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾[44] تخبر هذه الآية أنَّ رسول الله محمد –صلَّى الله عليه وسلَّم– قد صدَّق الوحي، وآمن بما أنزل إليه من ربّه. كما آمن المؤمنون بوجود الله وأقرُّوا بوحدانيته، وآمنوا بملائكته وبجميع الرسل والأنبياء، والكتب السماوية المنزَّلة على المرسلين والأنبياء دون تفريق بينهم. داعين الله تعالى المغفرة موقنين بالعودة إليه.

وقد جاء التذييل في نهاية الآية الكريمة بجملة(**وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**)، وهو تذييل يؤكد إيمان المؤمنين بالرجوع إلى الله تعالى، والإقرار بالبعث. وقد ورد هذا التذييل في ختام السورة مناسبًا في الوقت نفسه لافتتاحها بذكر الكتاب، وما يجب على العباد الأخذ بما جاء فيه من أوامر وتعليمات، أو تركها.

وفي الآية الكريمة ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾[45]

تحث الآية الكريمة المسلمين إلى شكرا الله تعالى على نعمة النصر والفتح ودخول الناس في دينه، وانتهاء دين المشركين الفاسد. كما تدعوهم إلى طلب المغفرة من كل ذنب اقترفوه، والله تعالى إذ يأمر عباده بالاستغفار توبة إليه كان تواباً عليهم يقبل توبتهم فيغفر ذنوبهم ويرحمهم.

وقد جاءت جملة **(إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)** تذييل للكلام السابق لها، وتعليل لما يقتضي التعليل من الأمر بالاستغفار. وفي بلاغة هذا التذييل يقول ابن عاشور: "وإذ قد كان الكلام تذييلاً وتعليلاً للكلام السابق تعيَّن أنَّ حذف متعلق {تواباً} يُقدَّر بنحو: على التائبين. وهذا المقدَّر مراد به العموم، وهو عموم مخصوص بالمشيئة تخصصه أدلة وصف الربوبية، ولمَّا ذكر دليل العموم عَقَّب أمرِه بالاستغفار أفاد أنِّه إذا استغفره غفر له دلالة تقتضيها مستتبعات التراكيب، فأفادت هذه الجملة تعليل الأمر بالاستغفار لأنَّ الاستغفار طلب لغفر، فالطالب يترقَّب إجابة طلبه وأمَّا ما في الجملة من الأمر بالتسبيح والحمد فلا يحتاج إلى تعليل لأنَّهما إنشاء تنزيه وثناء على الله. ومن وراء ذلك أفادت الجملة إشارة إلى وعدٍ بحسن القبول عند الله تعالى حينما يقدم على العالم القدسي" ابن عاشور.

2- التذييل الذي لا يجري مجرى المثل المؤكد للمنطوق:

مثلما يأتي التذييل الذي لا يجري مجرى المثل مؤكدًا للمفهوم، فقد يأتي مؤكدًا للمنطوق، أي ما يدل عليه اللفظ من المعاني التي هي في محل النطق. ويكون سوقه من أجل تأكيد منطوق الكلام بمعنى أنْ تكون الجملة الثانية تأكيداً لمنطوق الجملة الأولى، ويشترط أنْ يكون الاشتراك بين الجملتين في نفس اللفظ. ومثال ذلك التذييل الوارد في الآية الكريمة ﴿**ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ**﴾[46] فقوله: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ وذلك باتفاق لفظ جزيناهم، ونجازي، ولفظ كفروا مع الكفور.

والتذييل في الآية الكريمة: ﴿**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[47].

يقول ابن عاشور في بيان التذييل الوارد بهذه الآية: "وجملة: {ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون} تذييل، وأفادت جملة {فأولئك هم الظالمون} حصراً وهو حصر حقيقي، إذ ما من ظالم إلا وهو متعد لحدود الله، فظهر حصر حال المتعدي حدود الله في أنَّه ظالم)[48].

رابعاً- الخاتمة:

بعد دراسة التذييل في الخطاب القرآني وأسراره البلاغية توصَّل البحث إلى جملة من النتائج أهمها:

1- يمثِّل التذييل البلاغي في الخطاب القرآني ظاهرة قوية الحضور في كثير من السور القرآنية.

2- سلامة النص القرآني من شبهة التكلُّف والتعمُّل، وهو ما يعني التسليم ببعض الاختبار التركيبي وبلاغة النظم.

3- للتذييل في الخطاب القرآني أسلوب ومسلك عجيب، لا يشبه كلام البشر.

4- أنَّ التذييل في الخطاب القرآني لا يقع إلا بجملة تعقيبية تقرِّر معنى جملة سبقتها، وليس إفادة نفس معنى الجملة الأولى.

5- تناسب التذييل في الخطاب القرآني مع الكلام المذيَّل تناسبًا راقيًا، يجعل السابق يمهِّد للاحق، واللاحق يؤكد على السابق في تناغم واتساق.

6- الانسجام والتناسب والتآلف بين مضمون الآية، ومضمون التذييل، مع رعاية المبنى، ورعاية المعنى معاً.

7- يعالج التذييل آفات الخطاب، وتقويم موقف المتلقِّي، وكلل ذهنه و شروده.

8- من التذييل ما يجري مجرى المَثَلِ، ومنه غيرُ جارٍ مجرى المثل.

الهوامش:

1- الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1998م، ص 323.

2- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، مادة (ذيل).

3- العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1986م، ص73.

4- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1982م. ص 219.

5- ابن أبي الإصبع، التحرير والتحبير، ص 155.

6- ابن البناء المراكشي العددي، الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق: رضوان بن شقرون، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص 151.

7- بدر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2001م، ص227.

8- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، (الطبعة الثانية)، ج68/3.

9- ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب،شرح: عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1991م، ج1/ 242.

10- السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988م، 279/1.

11- ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع،تونس، ج1/ 436.

12- سورة البقرة، الآية 137.

13- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: ماهر حبوش، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2010م.ج 472/2.

14- سورة فاطر، الآية 41.

15- ابن عاشور، التحرير والتنوير(مصدر سابق) ج329/22.

16- سورة النور، الآية 38.

17- سورة النصر، الآية 3.

18- سورة البقرة، الآية 197.

19- ابن عاشور، التحرير والتنوير (مصدر سابق) ج2/ 236.

20- سورة البقرة، الآية 191.

21- لباب التأويل في معاني النزيل، علاء الدين البغدادي، المشهور بالخازن،ضبط وتصحيح: عبد السلام شاهين، منشورات: محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،(الطبعة الأولى، 2004م)، ج122/1.

22- سورة البقرة، الآية 74.

23- سورة الأنعام، الآية 73.

24- سورة التحريم، الآية 2.

25- سورة ص الآيتان: 86، 87.

26- سورة فصِّلت، الآيتان 45، 46.

27- سورة الزخرف، الآيتان 22، 23.

28- سورة الكافرون، الآيات 1ـ 6.

29- سورة البقرة، الآية 32.

30- سورة البقرة، الآية 199.

31- في ظلال القرآن القرطبي.....

32- سورة الإنسان، الآية 30.

33- سورة البقرة، الآية 29.

34- فاطمة معزوز، التذييل في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية والأدب العربي، جامعة اكلي مهند، الجزائر. ص 137.

35- سورة النور، الآية 21.

36- سورة النصر، الآيات1ـــ 3.

37- سورة البقرة، من الآية 108.

38- سورة الأنبياء، الآية 74.

39- سورة الإسراء، الآية81.

40- سورة البقرة، الآية 191.

41- سورة البقرة: الآية 195.

42- سورة فاطر، من الآية 18.

43- سورة البقرة الآية: 202.

44- سورة البقرة، الآية 285.

45- سورة: النصر، الآية 3.

46- سورة: سبأ، الآية 34.

47- سورة: الآية: 229.

48- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (مصدر سابق) ج314/2.